الدين والدولة فى عهد النبى

للدكتور محمد عبد المعز نصر

— ١ —

لقد كتب الكثيرون من الكتاب والمفكرين فى مشارق الارض ومغاربها عن الاسلام . ولكن مجال الكتابة عنه لايزال واسعا امام المفكرين فى الحاضر والمستقبل . ذلك لان كل جيل يفسره فى ضوء تجربته الخاصة . وهانحن فى عصرنا الحاضر الذى امتاز بثورة اجتماعية فرقت المجتمع الدولى الى معسكرين شرقى وغربى ، بل فرقت المجتمعات المحلية ذاتها الى طبقات يدين بعضها بمذهب الشرق والآخر بمذهب الغرب ، نرى الاسلام يعاد تفسيره تارة لمصلحة الغرب واخرى لصلحة الشرق ، كما نرى بعض ابناء المسلمين يتحمسون له حماسة تجعلهم يعدونه نظاما قائما بذاته لاهو بالشرقى ولا هو بالغربى وانما هو قوة متفردة يطمحون الى بعثها من جديد لينقذوا بها انفسهم وبلادهم مما يحيط بها من عوامل الاضطراب العالمى والمحلى .

وليس من غرضنا فى هذا المقال ان نعالج التفسيرات السياسية الحديثة للاسلام وانما نشير الى بعض اتجاهاتها كى نبين الاهمية الجوهرية لمثل هذا الموضوع فى مثل البقعة التى نعيش فيها من العالم . فالباحث الهندى « الشيخ مشير حسين قدوائى » فى كتابه : "Pan-Islamism and Bolshevism" يرى فى الاسلام شيوعية اسبق واسمى من شيوعية البلاشفة فى روسيا ، فهو دعوة الى « توحيدالله ، واخوة الانسان ، ورفعة البشرية الاخلاقية والروحية وانقاذها الاقتصادى ، والتقدم العقلى والمادى والحرية السياسية لكافة الامم وكافة الشعوب ، والغاء الملكية الخاصة والاستغلال والظلم والاستعباد فى كل مكان وفى جميع العصور » (١) ومن الطريف ان نرى شيخا آخر من شيوخ الاسلام المصريين حين يساله مندوب من ممثلى المعسكر الغربى عن وجهة نظر الاسلام من الشيوعية يعطينا تفسيرا مناقضا لتفسير الشيخ الهندى . فصاحب الفضيلة الشيخ عبد المجيد سليم حين كان شيخا للجامع الازهر قال « ان الاسلام واق من الشيوعية بما حوى من مبادىء خطيرة فى تشريعاته ، لاتجعل

(١) جريدة المصرى عددى ٢٧ مايو سنة ١٩٥١ و١٥ يوليه سنة ١٩٥١

للشيوعية وغيرها من الدعوات المتطرفة طريقا الى قلوب الناس ، فهو يأمر بالتضامن والتكافل الاجتماعى الى ابعد مدى يتصوره الانسان . ولكنه فى الوقت نفسه لا يتعرض للملكيات ولا يحد منها . بل يفرض على هذه الملكيات للدولة من الحقوق المالية ما يراه كفيلا بقيام بيت المال او وزارة المالية لرعاية مصالح الدولة وحقوق الشعب » (١) ولقد ترجم عبد الرحمن عزام الامين العام للجامعة العربية هذا الرأى الذى يمثله قول الشيخ عبد المجيد سليم الى لغة السياسة الدولية التطبيقية حين صرح فى اللحظة التى كان يسعى اثناءها وزير خارجية مصر ، الدكتور محمد صلاح الدين ، للحصول على تأييد روسيا لمطالب مصر القومية ، ببيانه فى باريس عن الاسلام والشيوعية اذ قال : « ان الاسلام كان دائما حاجزا منيعا دون تطرق السلافيين نحو الجنوب . » ثم قال « وسنبقى مخلصين لديننا واعداء ثابتين للشيوعية » (٢) .

وان كان رأى شيخ الجامع الازهر السابق ورأى الامين العام السابق للجامعة العربية هما رأيى رجلين يشغلان منصبين رسميين ، فهنالك من الآراء مايعبر فى مصر ذاتها عن وجهة نظر متطرفة فى فهم الاسلام والدولة . وهذا التطرف يميل تارة الى اليسار وتارة اخرى الى اليمين . ويبدو هذا الاتجاه واضحا اذا ما اطلعنا على كتابى « من هنا . نبدأ » (٣) و « من هنا نعلم » (٤) ونحن لانريد أن نتتبع تحليل الادب السياسى الاسلامى المعاصر فى هذا المقام ، اذ غاية مانبتغى من هذه المقدمة لبحثنا فى الدين والدولة اثناء عهد النبى هى توجيه النظر الى مثل هذا البحث فى بلاد ظهر فيها «الاخوان المسلمون » واحست احساسا مباشرا بقيام دولتى « الباكستان » و « اسرائيل » (٥) على اساس لايعرف الفصل بين الدين والدولة .

— ب —

فبعض الحركات الاسلامية المعاصرة اخذت تنظر الى الوراء لتعرف كيف تسير الى الامام . وذلك بعد أن تبين للعالم كله ان النظر الى الامام فحسب لم

---

(٢) جريدة الاهرام عدد ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٥١

(٣) خالد محمد خالد ــ من هنا ... نبدأ
القاهرة ١٩٥٠ (الطبعة الرابعة)

(٤) محمد الغزالى ــ من هنا نعلم ــ القاهرة ١٩٥٠

(٥) Joseph Dunner —*The Republic of Israel, Its history and promise. New York, Whittlesey House.*

بعد ذلك الحلم الوضاء الذى تمثل فيه مفكرو الثورة الفرنسية نعم الهادى للبشر الى بلوغ الفردوس على الارض . فالعالم لايسير فى تقدم مطرد نحو الكمال كما شاع بين المفكرين فى يوم من الايام ، بل يتعرض الآن لخطر العودة الى عصور التوحش والهمجية . ومن ثم يعكف بعض المسلمين الآن خاصة فى الباكستان وفى مصر على التنقيب فى تجربتهم التاريخية علهم يجدون فيها بذور الصلاح والوضوح لحياة مضطربة مبهمة . وفلسفتهم فى ذلك قائمة على ان الفرد منا اقدر على الافادة من تجربته الخاصة منه على الافادة من تجربة جاره . وكذلك الشعوب . فالشعب الاسلامى يستطيع أن يدرك من ضروب القوة فى المجتمع الاسلامى الاول ما قد لايستطيع ادراكه فى حياة المجتمعات الاخرى قديمها وحديثها .

ونحن نقتصر هنا على ان نعرض لثلاثة مبادىء سياسية تتجلى فى نشأة الدولة العربية اثناء عهد الرسول . وتطابق الى حد بعيد على التتالى ثلاث فترات نرى تقسيم عهد الرسول اليها : ـ

(١) العشر سنين الاولى من البعثة وهى فترة تكوين الجماعة الاسلامية فى مكة ،

(٢) والثلاث سنين التى تعقبها وهى فترة تأسيس دولة المدينة ،

(٣) ثم العشر سنين التى تتم بها بعثة الرسول وحياته وهى فترة تكوين الدولة العربية القومية .

وهذه المبادىء الثلاث هى :

(١) مبدأ الوحدة الاجتماعية (٢) ومبدأ المسئولية السياسية والاجتماعية (٣) ومبدأ القوة .

(١)

أما مبدأ الوحدة الاجتماعية ، فيبدو قويا أخاذا مع ظهور الدعوة الاسلامية . ويسير فعله فى بطء بادىء الامر ولكن يسير سيرا وثيقا أكيدا . اذ اخذ المؤمنون بالدين الجديد فى مكة يقتربون بعضهم من بعض ويكونون جماعة مترابطة بأواصر الاسلام ترابطا تكاد تختفى حلقاته وتندمج ذراته فيصبح وحدة تامة ، ان تميز افرادها فتميز اعضاء الجسم الواحد . وما ان تكونت الجماعة الاسلامية الاولى من افراد يسهل احصاؤهم عدا على الاصابع حتى وضعت نواة المجتمع الاسلامى ونواة الدولة الاسلامية فى آن واحد . فرأينا ان المجتمع

الجديد لا يعتمد في بنيانه على الاعداد المتراصة من البشر بل على العقول المتشابهة في التفكير والارواح المتحدة في الشعور ، وانه لا يستمد حياته من النشاط الذي اعتاد مزاولته العرب قبل الاسلام ؛ بل يستمدها من ينبوع الدين الجديد الذي ينسج عقول اتباعه وارواحهم في نسيج متماسك متجاوب . لقد قفز المجتمع الاسلامي قفزة مباشرة الى الوجود لانه اكتسب وحدة سريعة عن طريق الوحدة العقلية التي امتاز بها المسلمون والتي كانت الاساس المكين للمجتمع الاسلامي . ومن ثم تؤيد نشأة الجماعة الاسلامية وظروف تكوينها رأي المفكرين السياسيين الذين يعالجون شئون المجتمع معالجة سيكلوجية فيعرفون المجتمع بانه ترابط عقلي بين الافراد قبل ان يكون جوارا محليا أو تعاقدا اجتماعيا فحسب . (١)

ولقد كان هذا الترابط العقلي بين اعضاء الجماعة الاسلامية الاولى ، العامل الاول الذي جعلهم قوة منشقة على المجتمع المكي يخشى خطرها على نظام مكة المستتب سياسيا واجتماعيا واقتصاديا . فالدين الاسلامي لم يدع الناس جميعا الى عبادة اله واحد والى تحطيم آلهة العرب من الاوثان مقتصرا بذلك على شئون الروح فحسب ؛ بل مست دعوته شئون الحياة ونظامها كذلك (٢) . ولهذا رأى المشركون من أهل مكة ان ثورة الاسلام الروحية لابد من ان تترجم الى ثورة اجتماعية . فهو دين يخالف معتقداتهم التي ورثوها عن آبائهم ويتحدى في الوقت نفسه نظمهم الاجتماعية التي تستند الى هذه المعتقدات . ولذا لم يسعهم الا أن يحاربوه . ولو فعلوا غير ذلك لعجبنا منهم . اذ ليس آلم للنفس من تقبل فكرة جديدة كما يقول والتر باجت (Walter Bagehot) (٣) . والانسان جبل على مقاومة كل ما يهدد صالحه واضطهاد ما يخالفه . ولقد تأيدت مخاوف قريش على معتقداتها ومجتمعها . فالمجتمع الاسلامي الاول قد تكون من الابناء والآباء والاخوة والامهات والزوجات ، وتكون من الفقراء والاغنياء ، والضعفاء والاقوياء ، وتوحد بوحدة الايمان بالله ووحدة الاعتقاد بمبادىء الاسلام السامية .

واول ما تقابل هذا المجتمع الموحد الموحد تقابله في مشاهد المحنة التي

---

(١) 1. — Aristotle :*Politics (Book III).*

2. — Walter Bagehot : *Physics and Politics.*

(٢) T. W. Arnold — *The Preaching of Islam (Chapter II).* *London, Luzac and Company, 1935.*

(٣) Walter Bagehot : *Physics and Politics P. 166.* *(in Works Vol. VIII edited by Mrs. Barrington).*

كانت ولا تزال مواقف الاختبار لمبلغ تماسك المجتمعات وسلامة تكوينها . فاضطهاد قريش لاتباع الدين الجديد ممن لاحول لهم فى دفع العدوان المتزايد يوما بعد يوم اضطر النبى الى ان يشير عليهم باختيار حل سلبى ـ الا وهو الهجرة الى الحبشة التماسا لحمى النجاشى (٤) . وهذا اول حدث انفصالى من نوعه فى مكة . فما كان من المكيين الا ان أرسلوا فى اثرهم سفيرين ـ عبدالله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص بن وايل ـ يحملان الهدايا الى النجاشى وبطارقته ليسلم المسلمين اليهما ويردهم عن جواره وبلاده الى موطنهم الاصلى حيث يلقون جزاءهم على ما فعلوا . وهنالك أمام محكمة النجاشى تسمع فى وضوح رأى كل من الفريقين فى الآخر . وأبعد من ذلك فاننا نكشف الاسس التى قام عليها المجتمع الاسلامى ، ونتبين صورة مقارنة بين النظام الاجتماعى القديم والحديث . فسفيرا قريش يقولان عن اللاجئين المسلمين :

» ايها الملك انه قد ضوى الى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لانعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا اليك فيهم اشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشايرهم لتردهم اليهم فهم اعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه . «

أما عن اللاجئين المسلمين فقد ناب عنهم فى التحدث الى النجاشى « جعفر بن ابى طالب » فقال له :

« ايها الملك كنا قوما اهل جاهلية نعبد الاصنام وناكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الارحام وننسى الجوار ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وامانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان وأمرنا بصدق الحديث واداء الامانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ... فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ماجاء به من الله فعبدنا الله وحده لانشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا واحللنا ما احل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الاوثان من عبادة الله وان نستحل ماكنا نستحل من الخبايث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا ان لانظلم عندك ايها الملك . «

---

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (حـ ١ ذكر المهاجرة الاولى الى أرض الحبشة)

ومن هذا الحوار الذى يروى على لسان المهاجرين يظهر جليا أن المسلمين منذ البدء كانوا لايشعرون بتماسك جماعتهم فحسب ، بل يشعرون أيضا ان هذا التماسك قائم على مبادىء روحية واجتماعية ارقى من المبادىء التى يستند اليها المجتمع المكى . ويكفى أن نبرز من القول المنسوب الى المهاجرين اشارتهم الى ان فى المجتمع المكى كان « يأكل القوى الضعيف » حتى ندرك مدى اعتزاز المسلم بمجتمعه الذى أصبح ينتسب اليه ، ومدى استمساكه ببقائه مهما جلب عليه ذلك من صنوف الارهاب والتعذيب ، بل كان الاضطهاد فى ذاته سببا سلبيا أضيف الى الاسباب الايجابية التى جعلته يغنى فناء تاما فى النظام الاسلامى الروحى والاجتماعى .

— ٢ —

وان كان مبدأ الوحدة الاجتماعية بين المسلمين هو المبدأ السياسى الاول الذى نلاحظ فعله فى تكون الجماعة الاسلامية أثناء العشر سنين الاولى من البعثة ، فذلك لانه يمهد الى فعل المبدأ الثانى وهو مبدأ المسئولية السياسية والاجتماعية . فلقد ظهر مبدأ المسئولية السياسية والاجتماعية ظهورا ميز الدولة الاسلامية فى ـ ١ ـ فترة التحضير لقيامها عن طريق المفاوضة والتعاقد مع أهل يثرب ـ ٢ ـ وفترة التنظيم بعد تأسيسها فعلا فى المدينة .

١ ـ أما فترة المفاوضة بين النبى وبين من لقيهم فى مواسم الحج من الاوس والخزرج من أهل يثرب ، فقد انتهت كما نعلم ببيعتى العقبة الاولى والثانية . اذ اجتمعت كل الظروف المواتية التى تجعل من يثرب دولة المدينة الاسلامية الاولى . فأهلها من قبائل الأوس والخزرج كانوا فى صراع دائم مستمر كان آخر أيامه يوم بعاث الذى قتل فيه غالب رؤسائهم ولم يبق الا عبد الله بن ابى بن سلول من الخزرج وابو عامر الراهب من الاوس . ولذلك كانت عائشة تقول « كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم . » (١) ولقد خلق هذا الصراع جوا لايطاق من الخوف المستمر من الموت يذكرنا بجو الحياة البدائية المتوحشة الذى يصفه « توماس هبز » (Thomas Hobbes) (٢) ويفترض دفعه الافراد الى تولية حاكم من بينهم يتنازلون له مختارين عن سلطانهم وحريتهم فى سبيل ضمان الامن والحياة لهم . وانا لنلاحظ فى الظروف التاريخية لنشأة دولة المدينة تشابها بينها وبين ظروف نشأة الدولة الافتراضية

---

(١) محمد الخضرى ـ نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين ص ١٠٠ طبعة رابعة ، ١٣٢٧ هـ

(٢) Thomas Hobbes — *Levisthan.*

عند « هبز » ، والتى تقوم فى رأيه على العقد الاجتماعى . فما أن دعا سيدنا محمد من قابلهم من أهل يثرب الى اعتناق الدين الجديد والى منعه من أعتداء قريش حتى وجدوا فى هذه الدعوة فرصة نادرة لان يكونوا الانصار للنبى الذى بشر اليهود فى يثرب بمقدمه ، وليحصلوا على زعيم دينى وسياسى يعيد الى بلدهم الهدوء والاطمئنان بعد ان عجزوا عن الاتفاق على الخضوع لزعيم من بينهم . وان كان هنالك من يرى انهم كانوا على وشك تعيين عبد الله بن ابى بن سلول الا ان استاذنا عبد الحميد العبادى يذهب الى انه لم « تكن هناك رغبة صادقة فى تمليكه » (١)

ويهمنا فى هذا المقام ان نلفت النظر خاصة الى بيعة العقبة الثانية ، فهى الميثاق الفعلى لقيام دولة المدينة . اذ فوق كونها معاهدة على الايمان بالله ورسوله، فهى معاهدة سياسية عسكرية ، تضمنت فى نصوصها مبدأ المسئولية المشتركة بين صاحب الرسالة الاسلامية وبين انصاره من الخزرج والأوس . ولقد حرص الطرفان على تأكيد هذه المسئولية بين الحاكم والمحكوم . فشروط الدعوة والايمان فى هذه المعاهدة لم تقتصر على مجال الفكر والقول ، بل تعدته الى مجال العمل والتنفيذ . فالنبى صلى الله عليه وسلم لم يطلب الى المسلم من يثرب أن يؤمن بقلبه وان يعلن ايمانه فحسب ، بل طلب اليه ان يمنعه بسيفه من اعتداء المعتدين منعه لذويه من النساء والبنين . كما أن مسلمى يثرب احتاطوا للامر بدورهم بأن طلبوا الى الرسول الا يهجرهم عند بلوغه النصر وان يدافع عنهم ضد اعدائهم من اليهود وغير اليهود دفاعهم عنه ضد أعدائه . فقبل كل منهما ماطلب اليه الآخر . ويروى لنا « ابن اسحاق » تفاصيل هذه المعاهدة على لسان كعب وهو من وفد الانصار فيقول :

« قمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا حتى اذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلعم نتسلل تسلل القطا مستخفين حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ومعنا امراتان من نسائنا نسيبه بنت كعب أم عماره احدى نساء بنى مازن بن النجار واسماء بنت عمرو ابن عدى بن نابى احدى نساء بنى سلمه وهى أم منيع قال فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه الا انه احب أن يحضر أمر ابن اخيه ويتوثق له . فلما جلس كان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال يامعشر الخزرج ... ان محمدامنا حيث

---

(١) عبد الحميد العبادى ـ صور من التاريخ الاسلامى ـ العصر العربى ص ٤٤ الاسكندرية ١٩٤٨

قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ... وهو في عز من قومه ومنعة في بلده وانه قد أبى الا الانحياز اليكم واللحوق بكم فان كنتم ترون انكم وافون له فيما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم فمن الآن فدعوه فانه في عز ومنعة من قومه وبلده قال فقلنا له قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ماأحببت قال فتكلم رسول الله صلعم فتلا القرآن ودعا الى الله ورغب في الاسلام ثم قال أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وابناءكم قال فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال .. نعم والذي بعثك بالحق نبيا لنمنعك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يارسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر قال فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله صلعم ابو الهيثم بن التيهان فقال يارسول الله ان بيننا وبين الرجال حبالا وانا قاطعوها يعني اليهود فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم اظهرك الله ان ترجع الى قومك وتدعنا . قال فتبسم رسول الله صلعم ثم قال بل الدم الدم والهدم الهدم أنتم مني وانا منكم احارب من حاربتم واسالم من سالمتم (قال ابن هشام ويقال الهدم الهدم يعني الحرمة يقول حرمتي حرمتكم ودمي دمكم) . » (١)

٢ ــ ولكن هذه المسئولية السياسية التي تعاقد عليها النبي والانصار من اهل يثرب لا تمتد جذورها الى مصدر العقد الاجتماعي فحسب ، بل وجدت في الواقع أرضا خصبة في تعاليم الدين الاسلامي ذاته وفي منهج تنفيذها على يدي سيدنا محمد . اذ لم يهاجر سيدنا محمد واتباعه الى يثرب حتى اعلن بكتابه الدستوري المشهور الذي نشره بين المهاجرين والانصار واليهود قيام الامة الاسلامية وتفردها بين كافة الامم . فهو يقول :

« هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش (واهل) يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، أنهم امة واحدة من دون الناس » (٢)

وفي اللحظة التي اعلن فيها قيام الامة الاسلامية ، اعلن ايضا اشتمالها في دولة المدينة الاسلامية التي تنظم شئونها الداخلية والخارجية وتصون وجودها.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (امر العقبة الثانية حـ ٢ ص ٨٤)

(٢) محمد حميد الله الحيدر آبادي ــ مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة لرشيدة ص ١ القاهرة ــ لجنة التاليف والترجمة والنشر ٤٩١

ولقد فصل هذا الكتاب الدستورى مبادىء الحكم فى الدولة الجديدة . وأهم ما يلفت أنظارنا نحن الذين نعيش فى عهود الاشتراكية وشيوع الخدمة الاجتماعية ، ان دولة المدينة لم تكن دولة بوليسية تحفظ لمن عنده ما عنده من حياة ومال فحسب ، بل قررت فى وضوح تام مبادىء المسئولية السياسية والاجتماعية .

ولقد اتخذ الضمان الاجتماعى شكلين يسيران جنبا الى جنب ويكمل بعضهما بعضا . فهنالك ضمان قبلى داخل كل قبيلة او طائفة فالمهاجرون من قريش ، وقبائل الاوس والخزرج ، مسئول كل منها عن افرادها فى سرائها وضرائها «فهم على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين » والنظام الاسلامى فى هذا يقرر تقليدا عربيا سابقا ، وذلك لان كل قبيلة كانت بحكم عصبيتها مسئولة عن سلوك افرادها فى الخير والشر ، فى النصر والقهر ، فى الفدية والثأر .

اما الجديد فى مبدأ المسئولية السياسية والاجتماعية ، الذى أضافه الاسلام الى نظم العرب ، فهو التسامى عن اتخاذ مبدأ العصبية القبلية مقررا وحده لعلاقات العرب ، واستغراقه فى مبدأ اوسع واعم وهو مبدأ الاخوة فى الدين . فاعضاء الامة الاسلامية الجديدة لم يعودوا قبائل متفرقة كما كانوا من قبل ، بل اصبحوا مواطنين فى الدولة الاسلامية ، لايتقرر حق مواطنتهم بالميلاد او الشرف او الدم بل يتقرر بالاشتراك فى الايمان والجهاد فى سبيله . ومن ثم كانت الدولة الاسلامية مسئولة عن مواطنيها كافة . فيقرر النبى :

« ان المؤمنين لايتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل »

« وان المؤمنين المتقين (أيديهم) على (كل) من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم او اثما او عدوانا أو فسادا بين المؤمنين وان أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم . »

« وان سلم المؤمنين واحدة لايسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم . »

« وان المؤمنين يبىء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله . »

ويقرر النبى فى كتابه الدستورى ، غير ذلك من القرارات التى تنبعث جميعا عن فكرة واحدة ، فكرة الاخوة والمساواة الفعلية بين المسلمين . والنبى لاينشر هذه القرارات على الناس ويتركها لاختيارهم يتبعونها أو يهجرونها كما يشاءون ، بل يعلن أن الامر فى تنفيذها قد آل اليه وحده ، فهو صاحب السيادة الاوحد الذى يقضى باسم الله فيما يشتجر من خلاف بين المؤمنين .

ولذا نرى أن المسئولية السياسية والاجتماعية بين المواطنين فى دولة المدينة قد ضمنتها سيادة الدولة وسلطانها ، القائم على أحكام الدين والذى يشمل برعايته كل من يستظل به حتى من غير المسلمين طالما يرعون نواميسه .

(٣)

أما المبدأ الثالث وهو مبدأ القوة فيظهر فى المرحلة الثالثة وهى مرحلة جديرة بالاهتمام لان أسلوب الجماعة الاسلامية قد اتخذ طابع القوة المادية الى جانب القوة الروحية . ففى العهد المكى من الدعوة لم يكن فى وسع سيدنا محمد الا أن يلجأ لوسائل سلمية أمام اضطهاد قريش ، فيقبل الهجرة لاتباعه الى الحبشة ، ويقبل الحصار الاقتصادى والاجتماعى معبنى هاشم وبنى المطلب الذى فرضته قريش فى صحيفتها المعروفة . أما وقد أسس دولة المدينة وأصبح المجتمع الاسلامى الجديد قوة تستطيع أن تقف على قدميها فى وجه العدو ، فلا حاجة اذن الى مقابلة الاذى بالحلم ومقابلة عدم التسامح بالرضا . فالعنف والقوة ترد بالقوة . وتقرر هذا الاتجاه الجديد بوحى من عند الله فى كتابه المقدس . اذا امر الله نبيه بالقتال دفاعا لا اعتداء .

وان قتال المشركين والدفاع عن دولة المسلمين الجديدة بالسيف قد عرف بين المسلمين بالغزو وعرفت المواقع المشهورة بين المسلمين والمشركين بالغزوات . وكلنا يعرف غزوات بدر واحد والاحزاب (الخندق) والحديبية وفتح مكة وحنين والطائف وغيرها . فالغزو اذن أصبح سلاحا من أسلحة بناء الدولة العربية الاسلامية والمحافظة عليها . ولقد كان أسلوبا حاسما فى بناء الدولة الاسلامية . ويلاحظ المطلع على تاريخ هذه الغزوات أنها كانت سجالا عنيفا بين الطرفين ملئت صفحته بالدموع والدماء ، وملئت بآلام انسانية ابعد من هذه الآلام وذلك لان العقيدة الجديدة كثيرا مافرقت بين الاب وابنه والاخ واخيه والام وابنها . فالمهاجرون الى يثرب لم يكونوا سوى قطع من قلوب قريش ودمائها . ورغم كل هذه المحن التى ابتلى بها الفريقان لم يكونا ليستقرا على شىء سوى ابتغاء النصر الاخير . اذ ليس بينهما من وسط للطريق يلتقيان فيه . فليس بين التوحيد والشرك وسط ، وليس بين دولة الاسلام ودولة قريش من التقاء سوى الفناء او التسليم . وكانت النتيجة ان سلمت دولة قريش وان دخلت فى دوله الاسلام العامة تحت لواء الدولة العربية الجديدة . وما كان تسليمها الا نتيجة الهزيمة فى الميدان ، ولقد تبعتها القبائل العربية المشهورة مثل ثقيف وهوازن بعد أن غلبت على أمرها امام قوة سيدنا محمد التى ما كانت لتقهر قهرا جزئيا الا لتنتصر انتصارا عاما . فسيف الاسلام كان الفيصل النهائى فى قيام الدولة العربية القومية .

مامعنى هذا فى نشأة الدولة العربية ان صلة الغزو بقيام الدولة العربية يذكرنا فى هذه المرحلة من مراحل تكوينها بما ذهب اليه دعاة مذهب القوة فى نشأة الدولة خاصة «جمباوفتش» (Gumplowicz) وتلميذه «اوبنهيمر» (Oppenheimer) من « أن الدولة أثناء المراحل الاولى من تكوينها هى نظام اجتماعى فرضته جماعة منتصرة من الناس على جماعة منهزمة مدفوعة بالغرض الوحيد وهو تنظيم سلطان الجماعة المنتصرة على الجماعة المنهزمة . » ولكن يهمنا ان نسأل فى هذا المقام عن ماهية هذه القوة التى استخدمها المسلمون فى تأسيس دولتهم . اهى قوة مادية وحسب ؟ أهى قوة السيف وحده ؟ أم كان السيف اداة فى يد قوة اعظم منه ، هى القوة المعنوية للجماعة الاسلامية الناشئة؟ ان مثل هذا السؤال يبين لنا ان القوة المادية ما هى الا تعبير لقوة معنوية متفجرة . فالسيف الذى استعمله المسلمون لم يكن من طراز غير الطراز الذى استعمله المشركون . وسيف المسلمين لم يكن كشفا جديدا مثل القنبلة الذرية فى ايامنا يستخدمها قوم ليبيدوا بها قوما آخرين فى طرفة عين ، بل كان الاداة التقليدية للحروب العربية . وانما الكشف الجديد فيما دار من غزوات بين المسلمين والمشركين هو الدين الاسلامى فى بدئه وما اثار من ايمان قوى بين المؤمنين ومن اضطهاد لايقل قوة عن ذلك الايمان . ولقد كانت الغلبة آخر الامر للايمان على الانكار والكفر . ولقد كان السيف فى يد المؤمن افعل منه فى يد الكافر . لماذا ؟

ان ذلك يرجع الى أن الدين الاسلامى كان ثورة روحية واجتماعية ، ولقد هزت هذه الثورة نفوس المسلمين هزا عنيفا ، وفى هذه الهزة النفسية خلصوا من كثير من النظم والتقاليد التى كانت تملأ نفوس غيرهم من العرب بالضباب ، وتثقل ارواحهم بأعباء ثقال . فانطلقت نفوس المسلمين من عقالها واصبحت حرة تفيض بالحيوية فى عالم المثل الدينية والاجتماعية الجديدة . واذ تخلص المسلمون من عادات العرب وخرافاتها ومن التقاليد الثقيلة الموروثة تخلصوا فى الوقت نفسه من الخوف من الموت . وكان هذا مصدر قوتهم وتفوقهم على اعدائهم . فالمسلمون كأفراد كانوا يرون ان العيش فى ظل الاسلام عزة فى الدنيا ونعيم فى الآخرة . ولقد جاء الاسلام بنظام يضمن للمسلم اتصال الدنيا بالآخرة ، ويضمن له الحياة المقيمة ، فاستشهاد المسلم فى الجهاد ليس فناء بل بقاء سرمديا . ويبدو ذلك حين نلاحظ ما كان الفريقان المتحاربان يستعملانه من شعار فى الغزوات وما كانا يتخذانه من دوافع تحفز الهمم على القتال ، فالمسلمون حرصوا على ان يلجئوا الى الله فى التماسهم النصر ، اما المشركون فقد التجئوا الى دوافع محسوسة من دوافع الحماسة العربية التقليدية . فيقول ابن اسحق عن مناشدة الرسول ربه النصر فى يوم بدر :

« ثم عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف ، ورجع الى العريش فدخله ، ومعه أبو بكر الصديق ، ليس معه فيه غيره ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول فيما يقول : اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لاتعبد وأبو بكر يقول يانبى الله : بعض مناشدتك ربك ، فان الله منجز لك ما وعدك . وقد خفق رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقة وهو فى العريش ، ثم انتبه فقال : ابشر يا أبا بكر ، اتاك نصر الله . هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده ، على ثناياه النقع » (١)

وقال ابن اسحق أيضا :

« ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الناس فحرضهم وقال : والذى نفس محمد بيده ، لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، الا ادخله الله الجنة . فقال عمير بن الحمام ، أخو بنى سلمه ، وفى يده ثمرات يأكلهن : بخ بخ ، أفما بينى وبين أن ادخل الجنة الا ان يقتلنى هؤلاء ، ثم قذف التمرات من يده واخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل » (٢)

ويمكننا ان نلمس الفرق بين هذا الدافع الدينى الجديد فى ميدان الحرب وبين غيره من الدوافع الحماسية التى نراها بين الفريق الآخر حين نسمع فى «أحد» هندا بنت عتبة وهى تحرض أهل مكة على القتال ، اذ يقول ابن اسحق :

« فلما التقى الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، قامت هند بنت عتبة فى النسوة اللاتى معها ، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ويحرضنهم ، فقالت هند فيما تقول :

ويها بنى عبد الدار ويها حماة الادبار
ضربا بكل بتار

وتقول :

ان تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
او تدبروا نفارق فراق غير وامق (٣)

ونرى الفرق ايضا حين نشهد فى غزوة « حنين » ان مالك بن عوف النضرى قد ساق مع الناس « اموالهم وابناءهم ونساءهم » ليجعل « خلف كل رجل

(١) السيرة النبوية لابن هشام (حـ ٢ ص ٢٧٩)
(٢) السيرة (حـ ٢ ص ٢٧٩)
(٣) السيرة (حـ ٣ ص ٧٢)

منهم اهله وماله ليقاتل عنهم » (١) .

وهكذا نرى ان الاسلام قد اضاف الى الفتوة العربية فى ذلك الوقت عاملا روحيا الهبها وجعلها تؤتى اروع ماتستطيع النفس البشرية فى عالم الشجاعة والتضحية بالنفس . وبذا يصدق ما ذهب اليه « كارليل » (Carlyle) من ان الجيوش التى تخشى الله هى خير الجيوش ، وما لاحظه « والترباجت » « من ان الناس كانوا يضحكون من كروميل حين كان يقول لجيوشه ، ثقوا بالله واحفظوا البارود جافا : على حين ان الثقة بالله كانت تعادل البارود فى قوتها ان لم تفقه . وذلك لان التركيز العظيم للشعور المتزن يجعل الناس يجرأون على اقتحام اى شىء وفعل اى شىء » (٢) .

ولكن لم يقف أثر الدين الاسلامى فى الجماعة الاسلامية وفى مواطنى الدولة الجديدة عند تزويدهم بالقوة المستمدة من عاملى الخوف من الله وعدم الخوف من الموت ، بل فى الواقع امتد الى ابعد من ذلك . فقد خلق لنا مجتمعا موحدا متماسكا جاءت وحدته وتماسكه نتيجة لاجتماع المسلمين على معتقدات واحدة ومبادىء واحدة وسلوك واحد مما ربط كما ذكرنا بين أذهانهم ونسجها جميعا نسجا موحدا متماسكا جعلهم يفكرون ويسلكون ويعملون فى حياة السلم والحرب كما يفكر الرجل الواحد ويسلك ويعمل . وفوق ذلك فان هذا التوحيد والتماسك بين افراد المجتمع الاسلامى قد قام ــ كما ذكرنا ايضا ــ على مبادىء اخلاقية واجتماعية راقية نبيلة . ومن ثم بلغ اوج القوة المادية والمعنوية بالنسبة لمجتمعات العرب المحيطة التى اعوزها هذا التوحد وهذا التماسك كما اعوزتها المبادىء العالية التى ان استند اليها مجتمع وعمل بها استطاع ان يتغلب على المجتمعات المفككة الضعيفة . وفى هذا نرى تطبيق نظرية « والترباجت » التى ساقها فى كتابه « الطبيعة والسياسة » اذ ذهب الى انه فى التنازع على البقاء بين الناس تغلب الجماعة الفرد ، وتغلب الجماعة المتسقة الجماعة المفككة ، وفى تنازع الجماعات المتسقة تغلب الجماعة الآخذة بمبادىء ارقى وانبل . وفى هذا الصراع بين الجماعات خاصة فى العصور الاولى من تاريخ البشر نشأت الامم وقامت الدول بما فرضه الغالب على المغلوب من اتباع لنظمه وخضوع لسلطانه .

---

(١) السيرة (حـ ٤ ص ٨١)

(٢) Walter Bagehot — *Physics and Politics P. 50*

ولكن من الجدير أن نؤكد بعد الحديث عن المبادىء الثلاثة السياسية التى لاحظنا فعلها فى نشوء الدولة العربية القومية انه ماكان فى وسع هذه المبادىء ان تعمل فى الفراغ . وانما اكتسبت حيويتها ونفوذها لا من الناحيـة النظرية العامة بل من ناحية العامل الشخصى الذى جعلها تعيش بين العرب فى حياتهم الخاصة والعامة . ولقد تمثـل هذا العامل الشخصى فى محمد عليه الصـلاة والسلام . ففى تفكيره وفى سلوكه ، وفى قراراته وفى عمله ، كان المثل الحى لما انطوت عليه رسالته السماوية من تنظيم اجتماعى .

فمنذ البدء نشاهد رجلا مصمما على انشاء مجتمع جديد ، وبصيرا بمعالمه ومنهاج بنيانه ، ومدركا للحقيقة العظيمة أن المجتمع الجديد لن يقوم الا على حساب المجتمع القديم . ويبدو هذا الصراع بين نظام يسعى الى الميلاد ونظام يبتغى واد الوليد المتطلع الى الحياة ، من قلق السادة فى قريش على وحـدة مجتمعهم وتوكيدهم الشـكوى بأن محمدا لايحط من قدر آلهتهم وعقولهم فحسب بل يفرق جماعتهم . ولقـد ابانوا له ذلك فى حديث عام معه رجاء عدوله عن دعوته ، متخذين الاقناع وسيلتهم الى ذلك بدل التهديد والوعيد. والحديث الآتى كما يورده ابن هشام يشتمل على هذا الاتهام :

« فقالوا له يامحمد انا قد بعثنا اليك لنكلمك وانا والله مانعلم رجلا من العرب ادخل على قومه ما ادخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهـة وسفهت الاحلام وفرقت الجماعة فما بقى أمر قبيح الا قد جئته فيما بيننا وبينك او كما قالوا فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنامالا وان كنت انما تطلب به الشرف فينـا فنحن نسودك علينا وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك وكانوا يسمون التـابع من الجن رئيا فربما كان ذلك بذلنا اموالنا فى طاب الطب لك حتى تبرئك منه او نعذر فيك فقال لهم رسـول الله صلعم مابى ماتقولون ماجئت بما جئتكم به اطلب اموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى اليكم رسولا وانزل على كتابا وأمرنى أن اكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فان تقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وان تردوه على اصبر لامر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم او كما قال صلعم » (١)

---

(١) السـيرة لابن هشام (ح ١ مادار بين رسول الله صلعم وبين رؤساء قريش)

وفى الواقع ان البون كان شاسعا بين وجهتى نظر الطرفين وما كان لاقناع ابرهاب ان يفضى بهما الى التقاء اختيارى . وما كان ليهم محمدا ان تتفرق جماعة مكة اذا هى اصرت على مواصلة نطاقها القديم والتمسك باسسه الوثنية لان محمدا كان يدرك انه بالدين الاسلامى سيستطيع توحيد هـذا التفرق وخلق جماعة جديدة متماسكة على اسس جديدة ، اقدر على مغالبة الحياة من الاولى ، واقدر على ان تهيىء لمكة سلطانا واسعا يوطد مركزها بين قبائل العرب وغير العرب ويحميها من اخطار الغزو التى كانت تتهددها قبل الاسلام من القبائل المنافسة ومن الحملات الخارجية مثل حملة الفيل المشهورة . فهو من البدء كان شاعرا بأن الدين الذى أوحى اليه لن يكون دين دولة او دينا فى دولة وانما سيكون فى ذاته دولة . ولهـذا حين عاد اشراف مكة الى محاولة اقناعه بترك دعوته ، وجاءوا الى ابى طالب يستعينون به على ذلك عبر محمد عن هذا المطمح العظيم ، وهو فى هذا التعبير يناقض مارآه بعض المحدثين من المنكرين (١) بأن محمدا كان صاحب رسالة ولم يكن صاحب دولة . فابن هشام يقول :

« فبعث اليه ابو طالب فجاءه فقال يا ابن اخى هؤلاء اشراف قومك قد اجتمعوا ليعطوك وليأخذوا منك قال فقال رسول الله صلعم نعم كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم قال فقال أبو جهل نعم وابيك وعشر كلمات قال تقولون لا اله الا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه قال فصفقوا بايديهم ثم قالوا أتريد يامحمد ان تجعل الآلهة الها واحدا ان أمركم لعجب قال ثم قال بعضهم لبعض انه والله ما هذا الرجل يعطيكم شيئا مما تريدون فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه » (٢) .

ولكن القوم ما كانوا ليعبئوا بما يعدهم محمد من ملك العرب والعجم ، فهم احرص على صيانة سلطانهم الراهن المستتب من ان يجروا وراء تأسيس دولة خيالية . وهم قوم واقعيون يعرفون ماكانوا يجنون من حكمهم لمكة ، والهيمنة على جميع انواع النشاط المتصلة بعبادة الاوثان ، وولاية مناصب الدولة ووظائفها مثل السدانة والسقاية والرفادة والعقاب والندوة والقيادة والمشورة والاشناق والاعنة والسفارة والايسار والحكومة والاموال المحجرة والعمارة (٣)

---

(١) على عبد الرازق ـ الاسلام واصول الحكم (الكتاب الثانى ـ الباب الثالث) القاهرة سنة ١٩٢٥ (الطبعة الثانية)

(٢) السيرة لابن هشام (حـ ٢ ص ٥٥ ـ ٥٩)

(٣) جورجى زيدان ـ تاريخ التمدن الاسلامى (حـ ١ ص ٢٢ ـ ٢٤) القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩٥٢

فماكانوا ليتركوا غنما محققا يستمتعون به الى غنم موعود لايتحقق الابهجرانهم ماضيهم وحاضرهم وصالحهم المحسوس . وعلى قدر ما للواقعية من اثر محمود فى توجيه النظم وحياة الافراد والمجتمعات ، الا انها كثيرا ماتعمى أصحابها عن ادراك ما فى آراء من يبسمون ازدراء بالخياليين من خصوبة وما تنطوى عليه من امكانيات الخلق والابداع . فما كان منهم الا ان اتبعوا الاقناع بالتهديد والوعيد، وهم فى ذلك مخلصون لمنطق عقيدتهم وصالحهم الخاص . الا ان المبشر بالدين الجديد والدولة الجديدة لم يكن أقل منهم اخلاصا لعقيدته . فهو أول المؤمنين برسالته وهو أول المؤمنين بتنفيذها ، فلا جدوى من ايمان لايصحبه تنفيذ ، او كما قد كان يقول سقراط ، من معرفة لاترافقها ارادة وفعل ، فالمعرفة الصادقة فى ذاتها ارادة العمل . وتبين شخصية الرسول وما قدر لها من اثر فى تنفيذ الرسالة الاسلامية من رده على عمه أبى طالب حين عظم عليه « فراق قومه وعداوتهم ولم يطب نفسا باسلام رسول الله صلعم ولا خذلانه » اذ قال قوله المشهور « ياعم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على ان أترك هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك فيه ما تركته » (١)

لقد كان محمد اذن أول المؤمنين بالله ، وكان محمد اول المؤمنين ببسط سلطان الله على الارض . ولكن كيف يبسط ذلك السلطان وكيف ينفذ رسالته ؟ ان ذلك العمل الهائل لن يتم الا اذا كان محمد نفسه المثل الحى لرسالته والقدوة المثلى لقومه . ولم يكن ذلك امرا عسيرا على محمد اذ نشا نشاة اهلته لحمل هذه الامانة العظمى التى ائتمنه عليها ربه . فشخصيته التى تمت جوانبها واكتملت ذاتياتها عند نزول الوحى تجاوبت تجاوبا فعالا والمهمة الجديدة . ولذا لم تكن لدى محمد حاجة الى ان يغير أسلوب سلوكه بعد الرسالة ، فأعماله فى نشر الدين وبناء الدولة ليست سوى امتداد لمنهجه فى حياته الخاصة قبل ذلك . فعبقرية محمد تتجلى فى جمعه المنسجم بين صفات السيد وصفات العامل . اذ جاء من أسرة لها السيادة فورث عنها النبل والشرف ولكنه جاء من فرع لم تجتمع له السيادة الاقتصادية الى جانب السيادة فى الحكم ، فكان عليه منذ الطفولة أن يعمل ليكسب قوته وان يكتشف أثناء جهاده فى سبيل العيش ان السيادة الحقيقية لاتقوم الا على العمل ، وان العمل وحده هو اساس السيادة فى الدولة الجديدة . فراعى الغنم فى الطفولة والعامل فى تجارة خديجة بين مكة والشام فى مقتبل العمر وجد امرا طبيعيا ان يواصل اسلوبه بعد البعثة فيكون بناء فى مسجد المدينة وان يكون جنديا فى غزوات الاسلام . فابن هشام يصف لنا وصول النبى الى المدينة واخذه فى بناء مسجده ومساكنه فيقول :

---

(١) السيرة لابن هشام (حـ ١)

« قال : فامر به رسول الله صلى الله عليــه وسلم ان يبنى مسجدا ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابى ايوب حتى بنى مسجده ومساكنه ، فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرغب المسلمين فى العمل فيه ، فعمل فيــه المهاجرون والانصار . ودابوا فيه ، فقال قائل من المسلمين :

لئن قعدنا والنبى يعمل   لذاك منا العمل المضلل (١)

وان هذا النبى الذى قاد المسلمين الى الاشتراك فى بناء المسجد بوحى من عمله ، قادهم كذلك فى ساحات القتال ، وكانت قيادته لهم فى اوقات الهزيمــة لا تقل روعة عن قيادته لهم فى اوقات النصر . اذ كان ادرى قومه بتقلب الايام واعمقهم ادراكا لما تتطلبه المحن من احتمال لايقل فى قيمته عما يبديه المرء من شجاعة فى اقتحام الاخطار . ولذا كان للمسلمين بعد « احد » خير العاملين على تقوية روحهم المعنوية وصيانتها من الوهن والضعف بسبب الهزيمة التى لحقتهم فى ميدان القتال وما أحدثت من بلاء وجراح واستشهاد . كما كان عند فرار المسلمين فى غزوة « حنين » حين التقوا بهوازن المنقــذ الذى حول الهزيمــة الى نصر بثباته فى المحنة وقدرته على القيادة فى احرج الازمات وادعاها الى الفزع والهلع . ونحن نرى فى الوصف الاتى الذى يسوقه ابن اسحق عن موقف النبى وهو يشاهــد فرار المسلمين ويدعوهم الى معــاودة النزال صورة ناطقة لفن القيادة فى الجو العاصف حين يمتحن القائد اقسى امتحان :

« قال ابن اسحق : وحدثنى الزهرى ، عن كثير بن العباس عن ابيه العباس بن عبد المطلب ، قال :
انى لمع رسول الله صلى الله عليــه وسلم آخذ بحكمة بغلتــه البيضاء قد شجرتها بها ، قال : وكنت امرا جسيما شــديد الصوت ، قال : ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين راى ماراى من النــاس اين الناس ايها الناس ؟ فلم ار الناس ياوون على شىء ، فقال ياعباس، اصرخ ، يامعشر الانصار : يامعشر أصحاب السمرة ، قال : فأجابوا : لبيك لبيك . قال : فيذهب الرجل ليثنى بعيره ، فلا يقدر على ذلك، فياخذ درعه ، فيقذفها فى عنقه ، ويأخذ سيفه وترسه ، ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله ، فيؤم الصوت حتى ينتهى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . حتى اذا اجتمع اليه منهم مئة ، استقبلوا الناس ، فاقتتلوا وكانت الدعوى اول ما كانت : ياللأنصار . ثم خلصت اخيرا: ياللخزرج . وكانوا صبرا عند الحرب ، فاشرف رسول الله صلى الله

(١) السيرة لابن هشام (ح ٢ ص ١٤١)

عليه وسلم فى ركائبه . فنظر الى مجتلد القوم وهم يجتلدون ، فقال : الآن حمى الوطيس » (١)

وهكذا كانت نشأة محمد فى بيت من بيوت السيادة علمه حكم غيره ، وخضوعه لتجربة فى كسب العيش علمته كيف يصغى الى غيره عاملين متكاملين لتكوين الزعيم المثالى . فلقد كان اجتماع هذين العاملين داعيا الى مرونة التفكير والسلوك والقدرة على معالجة الناس والامور معالجة بلغت كمال التوفيق حتى لم يرتب احد فى انها موهوبة . ولعل هذه الناحية هى ابرز ما تتميز به تصرفاته فى تدبير شئون الجماعات والافراد فى ظل الدولة الجديدة التى اقامها والتى كانت مصلحة هذه الدولة هى التى تقرر هذه التصرفات دون التزام سنن جامد او منهج نظرى محدد . وربما كان فى ذلك ما يفسر لنا موقفه من المؤاخاة بين المسلمين والمساواة بين المهاجرين والانصار أول تأسيس الدولة فى المدينة ، وموقفه من الانصار والمؤلفة قلوبهم عندما اشرفت الدولة العربية الاسلامية على التمام . فصالح الاسلام هو الذى قرر الخطة الاولى كما قرر الخطة الاخيرة . ويبدو هذا جليا من قول الرسول للانصار فى تلك الحالة الثانية حينما وجد الانصار فى انفسهم شيئا من ايثاره المؤلفة قلوبهم عليهم :

« يامعشر الانصار : ما قالة بلغتنى عنكم ؛ وجدة وجدتموها على فى انفسكم ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فاغناكم الله ، واعداء فالف الله بين قلوبكم ! قالوا : بلى ، الله ورسوله امن وافضل . ثم قال : الا تجيبوننى يا معشر الانصار قالوا : بماذا نجيبك يارسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل . قال صلى الله عليه وسلم : أما والله لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم ولصدقتم : اتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك . اوجدتم يا معشر الانصار فى انفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتم الى اسلامكم ، الا ترضون يا معشر الانصار ، أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرا من الانصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الانصار شعبا ، لسلكت شعب الانصار . اللهم ارحم الانصار ، وابناء ابناء الانصار » (١)

وان كان صالح الاسلام هو الذى يقرر تصرفات الرسول حسب اختلاف الظروف وفهمه العميق لاخلاق العرب ، فانه لم يكن متعسفا فى قراراته او

---

(١) السيرة لابن هشام (حـ ٤ ص ٨٧)

(١) السيرة لابن هشام (حـ ٤ ص ١٤٢ ـ ١٤٣)

متفردا بها . فهو فى هـذا الخطاب الرائع الذى وجهه الى الانصار يحرص على تبرير تصرفه فى المفاضلة بينهم وبين قريش وقبائل العرب الاخرى معتمـدا فى ذلك على ما امتاز به اهل المدينة من ايثار وما عرف به اهل مكة من اثرة . وبحرصـه على هذا التبرير يدلنـا على انه حاكم يبتغى بناء حكمه على رضى المحكومين لا فرضه فرضا قاهرا تعسفيا . وان كان فى هذا الموقف قد برر فعله بعد انتهائه ، الا انه فى غير ذلك من المواقف كان لايأتى امرا يمس الصالح العام الا اذا تزود بمشورة المسلمين غير مفرق بين رأى كبير فيهم او صغير . ومتى استمع الى جوانب الرأى المختلفة واهتـدى الى قرار معين التزم ذلك القرار بعزم باهر ، وعد تنفيذه جزءا لا يتجزأ من سيادته على قومه فى دولة الاسلام الجديدة. فما كان رده على من دفعه الى الخروج لمقابلة قريش فى غزوة «احد» حين ظنوا انهم بمشـورتهم قد استكرهوه على ذلك الا أن قال قوله الباتر ، « ماينبغى لنبى اذا ليس لامته ان يضعها حتى يقاتل » (١) .

(١) السيرة لابن هشام (جـ ٣ ص ٦٨) .
(السيرة النبوية لابن هشام حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقـا وابراهيم الابيـارى وعبد الحفيظ شلبى القاهرة ١٩٣٦ ، ٤ ج)